إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية، مستفيدا إلى أقصى حد من خبرات الآخرين.

كل الحضارات البشرية سواء انبثقت عن رؤية دينية، أم موقف وضعى، صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار .. كانت تجد فى حضارة الاسلام صدرا رحبا...

كل الحضارات العالمية: يونانية، ورومانية، وبيزنطية، وهللينية، وفارسية، وهندية، وتركية وصينية... وتراث الجماعات والشعوب التى عاشت فىالمنطقة: آرمية، ونبطية، وقبطية، وفينيقية الى آخره... كانت جميعا ـ بمثابة حقول مفتوحة جال فى أطرافها العقل الاسلامى، فأخذ ورفض، واستقى ومحص واختبر، وعزل واستبعد وفصل ... وعرف، وهو يتحول عبر هذه الحقول الشاسعة، ما الذى ينسجم ونسغه* الصاعد ويزيده دما وحياة، وما الذى يحمل جراثيم المرض والهزال، والدم الأزرق الفاسد، فكان يعرف جيدا كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك...

لم يكن مجرد اقتباس، ولكنه هضم "وتمثل، وتطعيم مرسوم ... هدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار ... مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد!!

إن هذا الموقف الحضارى المتبصر ، المرن، الموزون... حقق مردوده الإيجابى الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب ولكن عبر نطاق الحضارات جميعا ـ العناصر الطيبة الصالحة فى هذه الحضارات بعبارة أدق ... وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدى وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق: حماية التراث الحضارى البشرى، وتمكينه من البقاء فى مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء"(٢٤)

---

* النُّسْغُ : ماء يخرج من الشجر إذا قطعت .